الدكتور نور الدين شعباني

محاضرات في
تاريخ ممالك السودان الغربي

دار الجزائر

الدكتور نورالدين شعباني

أستاذ التاريخ الافريقي

محاضرات في

تاريخ ممالك السودان الغربي

دار الجزائر

المحور الاول: السودان الغربي الارض و السكان

إذا كان هيرودوت قد أطلق على النيل المصري صفة واهب الحضارة المصرية القديمة بقوله ((مصر هي هبة النيل))، نظرا للدور الحيوي الذي لعبه هذا النهر في قيام أعرق وأرقى حضارة عرفها العالم القديم. فإن نفس الوصف يمكن أن نطلقه على نهري النيجر والسنغال في قيام حضارات وممالك السودان الغربي، فليس صدفة إذن إذا كانت المدن الأساسية للإمبراطوريات الكبرى الأولى في إفريقيا الغربية وجدت أولا في السهول المحاذية لنهري النيجر والسنغال.

ذلك أنه بين هذين النهرين توفرت ظروفا خاصة مساعدة على الزراعة والرعي، وهناك أيضا تطورت الحضارات الأولى للسودان الغربي[1]، فحوض نهري السنغال والنيجر و حتى غمبيا في الجنوب منهما كانوا مهدا لقيام الممالك الكبرى في السودان الغربي، كما هو الشأن مع أقدم إمبراطورية شاهدتها إفريقيا الغربية التي نشأت خلال القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، والتي امتدت على طول نهر السنغال بين غالام والمحيط الأطلسي إلى أدرار الموريتانيةو استمرت الى غاية الحملة لااستعمارية الاوربية خلال القرن 13للهجرة/19م، فالسودان الغربي إذا تعد بحق مهدا لأعرق الإمبراطوريات الإفريقية، كما تعد مسرحا لكل الأحداث الجديرة بالاهتمام بالنسبة لتاريخ السودان الغربي ابتداء من القرن الخامس للهجرة/11م، الذي يعد قرن التحوّلات الكبرى بالنسبة للمنطقة كلها. لذلك يجدر بنا أن نتعرف على هذه المنطقة من النواحي الطبيعية والبشرية، إذ يبدو أن دور هذه النواحي مهم جدا في الاضطلاع بتلك الخصائص الحضارية المذكورة.

(**1**) Niane djibril temsir, le soudan occidental au temps des grands empires au 11ème et 16ème siècle. Présence africaine, (Paris, 1975, p28)

أولا:الخصائص الطبيعية للسودان الغربي:

1.تحديد منطقة السودان الغربي:

نطلق اسم السودان الغربي على المناطق التي تشكل الأجزاء العليا لحوضي السنغال والنيجر، وهي تمتد من الشمال فتحدها الصحراء الإفريقية الكبرى ومنطقة باخوي (Bakhoy) وباولي (Baoulé)[1] إلى منطقة الغابات الاستوائية الممطرة جنوبا ومن الضفاف الشرقية لنهر النيجر شرقا الى المحيط الاطلسي غربا، كما يحدها من الشرق مجرى نهر النيجر، ومن الجنوب يحدها أحد روافده وهو نهر تنكيسو[2].

أما من الناحية الجيولوجية فإن هذه المنطقة مكوّنة من تتابع الهضاب العليا التي يبدأ ارتفاعها تدريجيا من نهري النيجر والسنغال، وتقطعها تلال شديدة الانحدار، ومحاطة بسلاسل جبلية قاحلة تتخلّلها قمم متفرقة، لعل أهمها قمة جبل "خوماخانا (khomakhana) في كتلة الماندينغ. أما التربة فهي متشابهة في هذه المناطق كلها، فهي تتشكل من مزيج من الحجر الرملي، وأكسيد الحديد، والغضار، وحجر الصوان، حيث أن الحجر الرملي يتشكل بصفة خاصة في المرتفعات، بينما يشكل الغضار التربة الأساسية للأحواض، وهو عامل يساهم في الحفاظ على البقايا النباتية والحيوانية والدبال، مما يسمح بزراعة الذرة، البطاطس، الدّخن، الفاصوليا والأرز. لكن هذه التربة الغضارية غير نفوذة وتسبب في نفس الوقت في حدوث فيضانات سريعة للأنهار التي تتضمنها المنطقة.

([1]) باخوي Bakhoy أو Bakoy هو نهر من أنهار إفريقيا الغربية، يقطع غينيا ومالي ويتصل مع نهر بافينغBafing ليكونا نهر السنغال في منطقة بافولابي Bafoulabé في محافظة كايس Kayes غرب جمهورية مالي، ويسمى أيضا بالنهر الأبيض، بينما يسمى بافينغ بالنهر الأسود).أما باولي فهو نهر من الأنهارالمتفرعة عن السنغال، الذي يعد هو الآخر أحد فروع السنغال، وينسب إليه شعب باولي الذي يقطن مناطق باولي، ياموسوكرو، ديامبوكرو،بيومي، وغيرها الموجودة في وسط كوت ديفوار.

([2]) ويعد نهر تنكيسو أحد أنهار جمهورية غينيا، وأحد روافد نهر النيجر من الجهة اليسرى، ينبع من مرتفعات فوتا جالون، ويجري باتجاه الشمال الشرقي بطول 270كم، ويلتحق بنهر النيجر في منطقة سيغيري (Siguiri).

Dr Colomb, Les populations du haut Niger, leur moeurs et leur histoire. Imprimerie Pitrat Ainé (Lyon,France,p1

2.الأنهار:

الملاحظ أن نهري النيجر والسنغال يشكلان أهم نهرين تسري بهما الحياة كلها في تلك المنطقة، فهما يشكلان إذن الشريان الحقيقي للمنطقة التي ارتبط اسمها باسم النهرين، وهو ما يجعل كل دراسة حول المنطقة تبدو ناقصة دون التطرق إلى هاذين النهرين العظيمين.

أ.نهر النيجر :

يعد نهر النيجر أهم مظهر طبيعي يميز المنطقة، ويعد أحد انهار العالم الكبرى[1]. أما من حيث تسميته فإن المؤرخ الفرنسي" موريس دولافوس" يذكر بأنه من بين الفرضيات المطروحة حول أصل التسمية يوجد الفرضية التي تقول بأن كلمة نيجر اشتقت من الكلمة البربرية (غر) أو(غير) التي تعني بالبربرية الماء المتحرك، ويقصد بها النهر أو البحر، وهو نفس الاسم الذي كان يطلق على النهر الذي يمر بمدينة "جاو"، حيث يطلق عليه اسم (يغرن) أو (يغريون)، والتي حرّفها التجار الذين يجهلون البربرية على شكل (نيغر) التي تحولت إلى (نيجر)[2].

وحسب مونغو بارك فإن الجزء الأعلى من هذه السلسلة والذي يوجد بين درجتي 5 ° و 9 ° غربا منه، ينبع نهر غامبيا الذي يتخذ مجرى (غربي وشمالي غربي)، ومنه أيضا ينبع نهر السنغال ويجري باتجاه الغرب، بالإضافة أيضا إلى نهر جوليبا (أو النيجر) الذي ينبع منه ويسير في اتجاه الشرق والشمال الشرق. حيث أن الانحدار العام لهذه الجبال يتجه نحو الشمال، وبالتالي المياه تتبع هذا الاتجاه وخاصة نهر النيجر الذي يسير على مسافة أكثر من مائة ميل[3] باتجاه الشمال قبل أن ينحرف نحو الشرق.

([1]) فهو يحتل المرتبة التاسعة عالميا من حيث الطول الذي يبلغ 4200كم.كما يعد أيضا ثالث أكبر نهر إفريقي بعد كل من النيل ونهر الكونغو. عن الموقع الالكتروني:

www.universalis.fr/encyclopedie/N°1 30091/niger-fleuve.htm

([2])Delafosse(M) :Op.Cit, tome1, p5

([1]) وهو ما يعادل 160.9 كم

وعموما فإن هذا النهر بعدما ينطلق من منبعه يتجه نحو الشرق، ثم إلى الشمال الشرقي إلى أن يصب في نهر تنكيسو من الجهة اليسرى بعدما يشكل حلقة كبيرة، ويتجه بعدها نحو خليج غينيا الذي يصب فيه، وفي طريقه إلى مصبه يلتقي بعدة روافد[1]، ويقطع نهر النيجر عدة دول هي جمهوريات كل من غينيا، مالي، النيجر ونيجيريا، وعند مساره نحو الشمال الشرقي باتجاه مرتفعات الماندينغ يتفرع منه باتجاه المنحدر الشرقي نهر جوليبا[2] الذي يعد موطن المالنكي وهو الموطن الذي ظهرت فيه مملكة مالي أو الماندي.. ويعد نهر النيجر نهرا صالحا للملاحة وهو ما جعل منه القلب النابض للتجارة لنهرية ، التي كانت تمثل أهم عوامل ازدهار الممالك التي قامت على ضفافه.

ب. نهر السنغال:

وهو النهر الذي يتمتع بأكثر شهرة عند الجغرافيين والرحالة العرب، بحيث يبدو أنهم عندما كانوا يتكلمون عن النيل السوداني انطلاقا من بلاد التكرور فإنهم كانوا يقصدون نهر السنغال دون أن يذكروه باسمه الذي نعرفه به اليوم، وحتى عندما كانوا يصفون أجزاء من نهر النيجر كانوا يعتقدون بأنه هو نفس النهر.

إلا أن نهري النيجر والسنغال يتخذان اتجاهين متعاكسين، فبينما يتجه النيجر نحو الشرق فان السنغال يتجه نحو الغرب[3]. أما بالنسبة للمسار الذي يسلكه نهر السنغال، فيمكن أن نقول بأنه شبيه بمسار نهر النيجر لكن بالاتجاه المعاكس له، فالسنغال يبدأ مساره نحو الشمال الغربي، حيث يمر فوق هضاب الماندينغ أين يشكل خطا متوازيا مع نهر"غامبيا" الواقع بالجنوب منه، وخلال مساره على هذه الهضبة تتخلله عدة روافد تشترك معه في نفس الاتجاه، أي من الشرق إلى الشمال الغربي.

أما بخصوص تسميته بنهر السنغال فقد أطلقها عليه الأوربيون على اعتبار أن العرب كانوا يدعونه بالنيل السوداني، أو النيل الكبير، أما السودانيين أنفسهم فقد كانوا يدعونه بأسماء روافده،

([1]) Dr : Colomb ,Op.Cit, p3

([2]) جوليبا أو "ديارب" أو"دياليبا" Djoliba – Diareb – Dialiba ، وتعني في لغة الماندينغ "النهر الكبير": ديالي: نهر، و با: كبير.

([3]) Niane Temsir djibril , Op.Cit, p20

فكانت كل منطقة تسميه باسم الرافد الذي يمر بأرضها.وعندما اكتشف البرتغاليون نهر السنغال لأول مرة في عام 1450م أطلقوا عليه اسم سينا (Sena) أو ساناغا (Sanaga) نسبة إلى اسم أمير أسود أقام معه البرتغاليون علاقات معينة، ومنذ ذلك الوقت أصبح يسمى "سينغا" ثم تحول إلى "سنغال".

وعموما فإن نهر السنغال لا تقتصر أهميته على كونه مصدر هام للماء والحياة، وما يوفره للمنطقة من سبل الرب والزراعة والرعي، أو عامل ازدهار التجارة عن طريق الملاحة النهرية فقط، وإنما تتعدى أهميته ذلك إذا ما علمنا بأنه يعد خزانا للمعدن الصفر بما تحتويه أراضيه من ذهب ذاع صيته في أطراف الدنيا، وشغل ملوك المشرق والمغرب خلال العصور الوسطى. كما كان هذا النهر قوام تلك الممالك والإمبراطوريات التي قامت على ضفافه على مر العصور، وخاصة في أرض ونقارة التي تحيط به روافد السنغال من كل جهة إلى درجة أن المصادر العربية وصفتها بالجزيرة[1].

فهذه الجزيرة النهرية التي قدر الإدريسي طولها بـ 300 ميل، والتي وصفها "ببلاد التبر المشهورة بالطيب والكثرة"[2]، كانت كلما فاض نهر السنغال خلال فصل الصيف وخطاها، ما إن ينحصر الماء مرة أخرى حتى يتدفق الناس إليها للبحث عن الذهب الذي يقطفونه كما يقطف الجزر ويبيعونه لكل دول المغرب ويضربون منه الدنانير الذهبية[3]. كما يضم هذا النهر أيضا أكبر مناجم الذهب في السودان الغربي كله، وهي مناجم بامبوك و"غالام" و"بوري"، والتي ترددت حولها الكثير من الحكايات والأساطير[4].

([1]) أنظر الإدريسي،المصدر السابق، ص39 . ابن الوردي،خريدة العجائب:ص42 . ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني)، كتاب البلدان، طبع في ليدن بمطبعة بريل،1309هـ ، ص87 .

([2]) المصدر السابق، ص39.

([3])الإدريسي، نفس المصدر:ص39 ـابن الوردي: المصدر السابق،ص42 . ابن الفقيه،المصدر السابق،ص87.

([4])حول هذه الأساطير أنظر: Cissé (Youssouf Tata) : WAKAMISSOKO. La grande geste du Mali, de origines à la fondation de l'empire Editions : Karthala,(Paris2007, p239.

3. المناخ:

ينقسم الإطار المناخي لمنطقة السودان الغربي إلى قسمين، يفصلهما نهر السنغال ورافده كاراكورو الذي يعد كما ذكرنا الحد الفاصل بين بلاد السودان وموريتانيا. حيث يصبح لدينا في شمال السنغال وشمال غرب كاراكورو مناخا صحراويا أو ما يعرف بالمناخ الساحلي الذي يشمل الأراضي السودانية المتواجدة في الشواطئ الجنوبية للصحراء، أو ما يعرف تاريخيا بمنطقة موريتانيا. وإلى جنوب وشرق النهرين يوجد مناخا سودانيا محضا[1].

فبالنسبة للجزء الجنوبي أو السوداني، فإن المناخ السائد يتميز بأمطار كثيرة وغزيرة، ويدوم فصلها أكبر مدة، وهو ما يجعل مجاري مياه أنهارها أكثر انتظاما، وأكثر منسوبا، كما أن الرطوبة تكون مرتفعة حتى وإن قلت الأمطار في بعض الفصول، بينما الحرارة تكون مستقرة ومتشابهة بين سنة وأخرى. أما المدى الحراري اليومي والضغط الجوي فهما ضعيفان، كما أن أعاصير هذا الجزء فهي كثيرة وقوية، منها ما هو محمَّل بالأمطار ومنها ما هو جاف وتتخلله الزوابع الرملية لكنها تبقى نادرة[2]. بينما في الجزء الشمالي أو الساحلي فيتميز المناخ بقصر مدة فصل الأمطار، وكمية الأمطار المتساقطة قليلة بحيث تصل إلى 0,25 مم سنويا، لهذا فالهواء يكون جافا وقليل الرطوبة، والحرارة تكون مرتفعة والمدى الحراري اليومي والسنوي يكونان كبيران، إذ تتراوح درجة الحرارة بين 10و 46 درجة، وفي شهر ديسمبر تهب رياح موسمية حارة وجافة تعرف "بالهرمطان" والتي تعمل بدورها على رفع درجة الحرارة أيضا[3].

وعموما فان منطقة السودان الغربي تتعاقب عليها ثلاثة فصول أساسية في السنة، وهي نفسها في المنطقتين الساحلية والجنوبية السودانية، لكن تختلف فقط من حيث فترات وتواريخ بداية ونهاية كل فصل. ولكنها على العموم فهي موزعة عل الشكل التالي: من شهر نوفمبر إلى شهر فبراير يكون

([1]) Gouvernement général de l'Afrique occidentale française : Le soudan. Société d'éditions géographiques maritimes et coloniales, (Paris, 1931, p14)

([2]) Delafosse (M) ,OP.Cit, p90 - Dr Colomb : Op.Cit, p2.

([3]) Gouvernement général de l'Afrique occidentale française , Op.Cit, p14. Delafosse , Op.Cit, p90

الطقس بارد وجاف، ويدوم فصل البرودة هذا حوالي ثلاثة أشهر في المنطقة السودانية، وتهب خلاله تلك الرياح الجافة القادمة من الصحراء المعروفة بالهرمطان، والتي تتسبب في اصفرار وتساقط أوراق الأشجار، وتسجل انخفاضات كبيرة لدرجة الحرارة في الليل، لذلك تسمى تلك الليالي بالليالي الباردة، أما ابتداء من شهر مارس إلى غاية شهر ماي فيكون الجو حار وجاف جدا، حيث نادرا ما تنخفض فيه درجة الحرارة عن 18°، فمدينة "بماكو" مثلا تصل فيها درجة الحرارة إلى 45 درجة، كما تسجل مدن سودانية أخرى مثل "كايس" و "سيغو" درجات أعلى، وترتفع درجة الحرارة أكثر كلما توجهنا من الجنوب نحو الشمال حتى إذا ما بلغنا المنطقة الصحراوية في الشمال فإنها تصبح غير محتملة. ومن حين لآخر تهب رياح ساخنة بقوة كبيرة متبوعة بزوابع رملية حمراء[1]. ربما هذه الرياح هي نفسها التي وصفها لنا الزهري، والتي سماها برياح السويداء، والتي تهب في الصحراء فتجفف الماء في الزقاق وتهلك جميع الحيوانات، والتي تقل كلما اتجهنا غربا واقتربنا من المحيط الأطلسي، أو توجهنا شرقا واقتربنا من نهر النيجر [2].

وابتداء من شهر جوان يبدأ فصل الأمطار، أو الشتاء[3] الذي يشهد هدوء طفيفا في تساقط المطار خلال شهر أوت. بينما في المناطق الساحلية الشمالية يبدأ هذا الفصل متأخرا وينتهي قبل شهر أكتوبر، حيث يبدأ بإعصارات ممطرة تجلبها الرياح الشرقية، وابتداء من شهر جويلية تعرف المنطقة أمطارا لفترات أطول مصحوبة عادة بزوابع عنيفة. أما في شهري سبتمبر وأكتوبر فان الأمطار تكون متقطعة لكنها تكون أكثر قوة وغزارة، كما يشهد هذا الفصل رطوبة خانقة جدا [4].

([1]) Gouvernement général de l'Afrique occidentale : Op.Cit, p14 - Delafosse (M) , Op Cit, p9

([2]) الزهري(أبو بكر)، كتاب الجغرافية، حققه: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، دون تاريخ، ص 126 .

([3]) يختلف" الدكتور كولومب" مع دولافوس حول بداية هذا الفصل، حيث يذهب الأول إلى أن هذا الفصل يبدأ في شهر ماي، بينما يتفقان حول تاريخ نهايته التي يحددانها بشهر أكتوبر.

([4])Delafosse (M) ,Op.Cit, p93

أنظر أيضا: مارمول كرفجال،إفريقيا.ترجمة: محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد علون. مكتبة المعارف، 1404هـ/1984م، الجزء الأول، ص 53.

ولقد أثّر هذا المناخ المتنوع تأثيرا مباشرا على الحياة النباتية في منطقة الأعلى السنغال والنيجر، حيث ترتب عنه غطاء نباتيا متنوعا حسب الفصول، ففي فصل البرد والجفاف والحرارة تكون الأرض جرداء والحشائش تحرقها الزوابع والحرارة، وتختفي فيها أوراق الأشجار وتصفر، وتتناثر على الأرض وتتصلب القشرة الأرضية ويبدو المنظر موحشا. وبمجرد حلول فصل الأمطار حتى تنتعش الحياة من جديد، وتكتسي الأشجار حلة خضراء، وتنبت الحشائش ويخضرّ السطح مبديا لونا زاهيا، وتتفتح الأزهار، وتنتعش النباتات الاستوائية الكثيفة[1].

لهذا يمكننا أن نقول بأن مناخ منطقة السودان الغربي وفي مجمله يعد من أجود المناخات في منطقة السودان الغربي كله، كما أن سطحها حسب شهادة حسن الوزان، يعد من أجمل ما يمكن أن تراه أعين رحالة زار معظم بقاع العالم مثله، حيث يقول بأن أجمل بلاد السودان هي تلك التي تمتد على طول نهر النيجر[2]. وبالتالي فليس صدفة إذا كانت مدن الممالك والإمبراطوريات الأولى في السودان الغربي قد ظهرت أولا على سهول ضفاف نهري النيجر والسنغال وذلك بفضل الظروف الطبيعية الخاصة التي وفرها هذان النهران، والتي ساعدت على قيام الحضارات الإفريقية الأولى. كما شكّل هذان النهران عاملا استقطاب السكان من كل الأجناس، سواء كانوا بربرا أوموريين دفعتهم حرارة الصحراء وجفافها إلى الهجرة نحو هذين النهرين، أو كانوا سكان إفريقيا الاستوائية والغابات الذين دفعتهم الرطوبة الخانقة والأمراض الفتاكة، والوحوش الضارية إلى التقرب من ضفاف هذان النهران، وهو ما جعل منطقة النيجر الأعلى والسنغال تعج بخليط من الأجناس والشعوب.

ثانيا: الخصائص البشرية:

إن البحث في موضوع العنصر البشري لمنطقة السودان الغربي يحتاج إلى كثير من التمحيص والجهد، وهذا نظرا للتنوع البشري للمنطقة بفعل الموجات المتعاقبة من الهجرات التي عرفتها المنطقة

---

(1) Dr Colomb ,Op.Cit, p3

(2) حسن الوزان، المصدر السابق، ص38 .